المقاومة الوطنية لقبائل القواسم ضد الغزو البريطاني في منطقة الخليج العربي 1778- 1820 م

د. ستار علك عبد الكاظم
جامعة بابل - كلية التربية الاساسية

المقدمة

كانت السيادة والقوة في الخليج العربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي بيد العرب سواء كانوا عرب عمان او عرب القواسم او غيرهم من عرب الخليج . حيث نجحت القبائل العربية نجاحاً واضحاً في صد التوسع الاوربي ، وسبق لعرب الخليج ان طردوا البرتغاليين والهولنديين وقاوموا التوسع الانكليزي وحافظوا على استقلالهم لكن طاقاتهم كانت مبعثرة ، الامر الذي ادى الى ضعف قوتها وانحلالها ، ومهدت للقوة البريطانية السيطرة الفعالة على منطقة الخليج العربي التي قدر لها ان تعيش لمدة مائة وخمسون عاماً.

وتم في هذا البحث تناول الموضوع في مبحثين ، شمل المبحث الاول ، التعريف بالقواسم وتسميتهم ونشأة الاتحاد القاسمي وتم التطرق للعلاقات السياسية بين القواسم والوهابين ومدى تأثير هذه العلاقة على تداعيات الغزو الاجنبي للخليج العربي .

والمبحث الثاني توضح فيه مراحل الصراع بين الانكليز والقواسم وتفاعل هذا الصراع بين الطرفين حيث شمل العمليات العسكرية البرية والبحرية ومقاومة القواسم لهذا الغزو الاجنبي والدفاع عن عروبتهم واستقلالهم وتضمن ايضاً الحملة البريطانية على موانىء القواسم سنة 1809م وتبعتها معركة رأس الخيمة ، وخلع الشيخ سلطان بن صقر، وقيام التحالف الانكليزي العماني ضد القواسم . وبعدها قيام الحملة البريطانية الكبرى ضد القواسم سنة 1819—1820 م واعقبها انهيار الاتحاد القاسمي ، ونتيجة لهذا الصراع الطويل تم الرضوخ الى عقد معاهدة 1820م بين الانكليز والقواسم ، وتبعه الاشارة الى دور المقاومة الوطنية للقواسم لمواجهة الاحتلال الاجنبي وتحقيقها بعض الانتصارات على الرغم من القوة العسكرية البريطانية.

المبحث الأول

أولاً: القواسم وتسميتهم

اطلقت كلمة قواسم او (جواسم) بشكل عام على كل القبائل القاطنة في المنطقة الواقعة مابين رأس مسندم شمالاً و (ابو ظبي) جنوبا [1].

اكتنف الغموض على الاصل والتسمية للقواسم ، الا ان هنالك العديد من الآراء المتضاربة حولهما ، فأغلب المؤرخين اعتبروا القواسم من اصل نجدي سكنت جهات الشرق في بلاد عمان حيث يشير ابن غنام ضمناً الى الاصل النجدي للقبيلة فيقول (ان القواسم هم من عرب آل الظفير)[2] .

ويعتبر الرحالة نيبور انهم من عرب الهولة القاطنين في الساحل الشرقي للخليج العربي . ويرى البعض ان هذه التسمية جاءت من اسم الشيخ قاسم جد الشيخ (راشد بن مطر بن رحمة) ويرى البعض أنهم جاءوا من سيراف على أثر التدهور الاقتصادي والتجاري وخالفهم في ذلك عدد آخر من الكتاب بان اصلهم من العراق ثم هاجروا الى المنطقة المذكورة عن طريق الساحل الشرقي [3].

ويقول محمود بهجت سنان انها قبيلة عربية عريقة نزحت من العراق من سامراء وهي ترجع في اصولها الى العدنانية ثم انحدرت منذ ثلاثة قرون في عهد جدهم الكبير كايد القاسمي الى ساحل عمان [4] .

ويذكر العابد انهم انحدروا من زعيم يدعى غياشم قوسم من مدينة رأس الخيمة حيث شكلوا دولة واحدة مع اقربائهم عن الجانب الآخر من الخليج العربي كما لازالوا يحملون التسمية الاصلية غياشم . ومهما اختلفت الآراء في أصل القواسم فان تسمية القواسم اصبحت متعارفة منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي على الاسرة الحاكمة في رأس الخيمة والشارقة.

ثانياً: نشأة الاتحاد القاسمي

تألف الاتحاد القاسمي من مجموعة من القبائل القاطنة في المنطقة الممتدة بين رأس مسندم شمالاً وابو ظبي جنوباً والتي تتبع في ولائها للشيخ القاسمي (راشد بن مطر بن رحمة) ومقره رأس الخيمة في مدينة جلفار وسميت رأس الخيمة لان احد شيوخ القواسم كان ينصب له خيمة على رابية قرب جلفار ويضع عليها فانوس في الليل فيراها الملاحون الذين يعبرون مضيق هرمز فيقال هذه رأس الخيمة[5].

حيث كانت رأس الخيمة الميناء الرئيسي للقواسم وكانت تنتمي الى الخواطر وهم فرع من قبيلة نعيم الكبيرة في الشارقة وهي ثاني ميناء للقواسم وان الغالبية من بنو قتب وزعاب والعلي والبوخريبان والشموح والمزاريح والحبوس والغفلة[6].

ومن الموانئ الاخرى المهمة تقع على جزيرة الحمراء وام القوين وعجمان ورامر والحمرية ولم تقتصر سلطة الشيخ القاسمي على هذه الموانئ فقط وانما امتدت الى الجهة المقابلة من الخليج فشملت مناطق كونك ولنجة وجزء من جزيرة قشم ، وكان اعتماد الاتحاد القاسمي من الناحية الاقتصادية على البحر الذي مارسوا فيه نشاطهم الاقتصادي والسياسي الذي كان مصدر معيشتهم الاول في صيد الاسماك واللؤلؤ والتجارة ، وكذلك إمتاز القواسم طبقاً لروايات المعاصرين بالحيوية وروح الشجاعة التي لاتعرف الحدود وانهم شعب محب للمغامرة. وامتدت سيطرة القواسم السياسية في هذه الفترة على لنجة واجزاء كبيرة من الجزر التي تقع قربها وكانت لهم معاملاتهم في قشم وكنج [7].

ثالثاً : علاقة القواسم بالوهابين

مرت العلاقات القاسمية الوهابية بمرحلتين تمتد المرحلة الاولى من حوالي 1797م الى عام 1800 م وتميزت هذه الفترة بمقاومة القواسم لمحاولات الوهابين لاخضاعهم لسيطرتهم ، أما المرحلة الثانية التي تبدأا من عام 1800م الى 1818م تميزت بتقبل القواسم للعقيدة الوهابية والتصاقهم بها.

المرحلة الاولى :

تطلع الوهابيون* بعد تثبت سلطتهم الى اخضاع مراكز القوى البحرية على الساحل الشمالي وبصفة خاصة القواسم ، ومن المحتمل انهم كانوا يهدفون الى تحقيق غايات سياسية واقتصادية من وراء ذلك يمكنهم من استغلال الاسطول القاسمي القوي لتوجيه ضربة قوية الى عمان التي وقفت امام مطامعهم التوسعية من اجل اخضاعها فمارس الوهابيون هجماتهم لساحل الشمال التي كانت غارات سريعة الانسحاب يصاحبها بنفس الوقت التبشير بمبادىء الحركة والدعاة حيث نجحوا في الحصول على موطأ قدم لهم في المنطقة [8].

وان هنالك خلاف حول السنة التي بدأ فيها التحرك الوهابي نحو ساحل الشمال وتثبيت انفسهم في البريمي بحدود سنة 1800 م[9].

وترى طائفة من المؤرخين ان هذا الاندفاع جرى سنة 1797م والجدير بالذكر ان القواسم قاوموا التوسع الوهابي بكل قواهم التقليدية وذهبوا الى ابعد من ذلك فقد تناسوا العداءات التقليدية مع عمان وتعاون الطرفان لابعاد الخطر الوهابي ولكن محاولاتهم انتهت بالفشل الذريع وخضوعهم سنة 1800م للعقيدة الوهابية [10].

ويقول العقاد ((عندما وصل نفوذ الدولة السعودية الاولى الى جنوب شرق شبه الجزيرة ورحب سلطان بن صقر باعلان تبعيته لحكومة الدرعية طالما ان هذه الحكومة لاتغير من وضعه كزعيم للقبيلة)) [11].

المرحلة الثانية :

آمن القواسم بالدعوة الوهابية بإخلاص ، ولعبوا دوراً مهما في اسنادها ونشر مبادئها فقد وجد القواسم في الوهابية فرصة لتوجيه ضربة قوية لسلطنة عمان وحاكمها باعلان الجهاد ووجدت لها صدى ملائم لطبيعة القواسم الحربية فاصبح نشاطهم البحري جزء من حركة الجهاد وضد (الكفرة منكري تعاليم الوهابية) وبذلك مد القواسم نشاطهم البحري الى البحار الهندية بحيث تحولوا الى مقاتلين متعصبين [12] لم تكن سيطرة الوهابين على القواسم بشكل مباشر واكتفى الوهابين باخذ الزكاة وخمس غنائم الحرب مع ترك الشؤون الاخرى بيد حاكمهم ، وذلك ان ارتباطهم بالبداية ارتباطاً معنوياً في الغالب وبعد وفاة صقر بن راشد سنة 1803م خلفه ابنه سلطان الذي استاء من التدخل الوهابي الذي افقده جانباً من نفوذ سلطته ، فقام الوهابيون بعزله سنة 1808 م وعين ابن عمه حسين بن علي حاكم الدمس بلقب نائب الوصي .ولعل هنالك جملة من الاسباب تكمن وراءها حماس القواسم للوهابية واخلاصهم لها ومنها :

مساعدة الوهابين في استمالتهم لقبائل الشمال بصورة عامة على ان معظم هذه القبائل من السنة ويميلون الى الغافرية وكان من السهل عليهم استيعاب المبادىء الوهابية ، وبنفس هذه الحقيقة ان القواسم سنة غافرية جعلتهم اعداء ألداء لحكام عمان آلبو سعيد الاباضية وهذا هو الخلاف الديني والسياسي الذي صعد الحرب بين الطرفين طيلة النصف الثاني من القرن الثامن عشر وكان من المفروض ان يقوم الشيخ القاسمي بارسال خمس الغنائم التي يحصل عليها من الحرس للوهابين [13].

ولو تطرقنا الى سيطرة الدولة السعودية الاولى على القواسم فهي كما قلنا سيطرة غير مباشرة حيث ان اعلان الشيخ القاسمي تبعيته للدولة الوهابية غير كاف عقب التحالف بين الطرفين .

المبحث الثاني :

مراحل الصراع القاسمي البريطاني :

أولاً : المرحلة المبكرة 1778 -1797 م

لم تكن هنالك اية علاقة ايجابية بين القواسم والبريطانين في هذه الفترة وكل ما يلاحظ فان هنالك مواقف سلبية بين الطرفين تمثلت اغلبها بهجمات قام بها عشائر القواسم على سفن مبحرة تحت العلم البريطاني وتركزت ردود فعل السلطات البريطانية من تلك الهجمات بما يلي :

1- بداية هذه الهجمات جرت في حزيران الى كانون الاول سنة 1778 م حيث شنت سفن قاسمية هجوماً على سفينة انكليزية تحمل رسائل رسمية ، وبعد معركة بحرية دامت ثلاثة ايام من أسرها واقتيادها الى رأس الخيمة وقد حاول المقيم البريطاني في بوشهر المستر جون بيمونت استعادتها ولكن الشيخ القاسمي رفض تسليمها بعد دفع فدية مقدارها أربعة آلاف روبية .

2- اعترض تشكيل قاسمي بحري مؤلف من ثمانية سفن السفينة البريطانية تكس وهي في طريقها من البصرة الى مسقط وفي شهر كانون الثاني سنة 1779م فقد حاول أسرها ولكنها نجحت في الفرار.

3- وهاجم تشكيل قاسمي بحري مؤلف من ثمانية سفن السفينة البريطانية استانس في شباط 1779 م ولكنها نجحت في رد الهجوم ووصلت بسلام الى بوشهر.

4- نجح القواسم في اسر السفينة (بكليرك) المبحرة تحت العلم البريطاني عام1790 م بالقرب من رأس مسندم [16].

5- هاجم القواسم في 18 مايس 1797 م السفينة البريطانية (باسين) بالقرب من جزيرة قيس وبعد اسرها اقتيدت الى رأس الخيمة .

6- ولعل من اجرء العمليات التي قام بها القواسم ضد الانكليز مهاجمة احد تشكيلاتهم البحرية للطراد البريطاني (فايبر ذو عشرة مدافع) في تشرين الاول سنة1797م عندما كان هذا الطراد راسياً بالقرب من بوشهر.

ثانياً : الحملة البريطانية على موانىء القواسم سنة 1809 م

انتهت اجراءات الحملة وتنظيمها في حزيران ولكن تقرر التريث حتى حلول فصل الخريف موعداً لاقلاعها لحين انتهاء الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي توشك على الهبوب فوق القسم الغربي من المحيط الهندي ومن الاجراءات التي اتخذتها حكومة بومباي ، منع تصدير الخشب من ساحل الملبار ، واما عن استعدادات الحملة وقواتها فقد تألفت من فرقاطات البحرية الملكية (الاسعفون) ذات

ثلاث مدافع وغيرها من السفن الكبيرة ، وعهد بقيادة هذه القوات البحرية الى الكابتن جون ويرايت ، وقاد الحملة العسكرية الكولونيل ليونيل سمث وحملت هذه القوات على متن اربع سفن بريطانية[17].

أبحرت الحملة من بومباي في 14 ايلول عام 1809م التي واجهت بعض المصاعب منها خبر موت الكابتن ستون قبل مغادرتها بشهر بسبب المناخ القاسي وبذلك فقد القادة خبراته الواسعة ومعلوماته في سياسات الخليج ، ولم تمض أربع وعشرين ساعة على إبحارها حتى غرقت حاملة الذخيرة والمدفعية (سترومبول) اذ سقط قاعها وغطست معها ضابطين واربعة عشر بحاراً وجزء كبير من الذخيرة ، كان لخسارتها اثر محسوس في عملية الهجوم على رأس الخيمة بينما ارسل وينرايت في 3 تشرين الاول ثلاث طرادات الى شاطئ مكران واثنين الى مسقط مع تعليمات الى قبطان الفرقاطة كارلوين بوجوب ملاقاة الاسطول بالقرب من رأس مسندم ، وصل الاسطول مسقط في 23 تشرين الاول وعقد على اثر الاجتماع بين قائدي الحملة والسيد سعيد ، وحيث وجد القائدان البريطانيان حاكم مسقط غير متحمس للحملة ومتشائم من إمكانيات نجاحها وعبر عنها بقوله : (ان مشروع الهجوم على رأس الخيمة بمثل هذه القوة عمل غير حكيم). واضاف ان الامر يتطلب قوة قوامها عشر الاف جندي على الاقل لدحر عاصمة القواسم كما ان المدافع مع الفرقاطات لم تكن مجدية في تدمير حصون المدينة بسبب ضحالة المياه عندها ، لذلك فانه لم يبدي تعاوناً هذه المرة سوى تقديم بعض البحارة المرشدين وزوارق صغيرة للانزال [18].

ثالثاً : خلع شيخ القواسم (سلطان بن صقر)

تعتبر حادثة خلع الشيخ الاعلى للقواسم من قبل سعود من ابرز حوادث تبعية القواسم للوهابين وتعيين ابن عمه حسين بن علي شيخ (على زعامة الاتحاد القاسمي بلقب نائب الوصي ، بصفة مؤقتة حيث تختلف المصادر اختلافاً واضحاً في دوافع اتخاذ هذه الخطوة ، حيث يقول ميلز ((ان تزايد النفوذ الوهابي اثار سخط القادة القواسم واصبح زعيمهم سلطان بن صقر يوضح عدم الرضا فنقل بالقوة الى نجد ، ويورد آخرون ان سبب التنحية هو رغبة سعود في الاشراف المباشر على النشاطات القاسمية في البحر ويرى العقاد ان العزل يمكن ربطه برغبة آل سعود لمسايرة الانكليز في الخليج بعد الحملة البريطانية عام 1809 م[19].

ويختلف ايضاً المؤرخون العرب بزمن وفترة الخلع للشيخ سلطان بن صقر فابن بشير يذكر ((ان الزعيم القاسمي خلال الحملة البريطانية على رأس الخيمة هو سلطان بن صقر)) ولم يعطي تأريخاً لعزله ، ويتفق معه عبدالرحمن عبدالرحيم الا ان هذا يخطأ بقوله ان سعود وبعد استدعائه لسلطان عام 1810 م عين عاملاً سعودياً للاشراف الاداري على المنطقة[20].

اما جمال زكريا قاسم فيحدد سنة 1809 م تاريخاً لعزل شيخ القواسم الا انه يشير الى انها تمت بعد الحملة البريطانية [21].

اما جون فلبي فيذكر ((ان الزعيم القاسمي خلال حملة عام 1809 م هونفس الزعيم الذي تمت تنحيته))[22].

ويقول خالد العربي ((ان سلطان بن صقر قضى الفترة من سنة 1806-1807م مهادناً ومسالماً الا انه عاد لمحاربة الانكليز سنة 1808 م وطالب بومباي بدفع الضرائب)) [23].

رابعاً : معركة رأس الخيمة

غادر الاسطول البريطاني مسقط بداية تشرين الثاني 1809 م وفي خلال هذا الوقت وصلت كارولين من اعلى الخليج مع بعض الطرادات على مقربة من رأس مسندم وبعد ظهر يوم الحادي عشر من تشرين الثاني كانت كل قوات الحملة على مقربة من رأس الخيمة ، والمقاومة الضارية التي واجهتها القوات البريطانية لم تخيب شهرة القواسم بالشجاعة والدهاء ، وجد القائدان الكابتن جون ويزايت ، والكولونيل ليونيل سمث بان سعيداً كان على حق من قوله بعدم تمكن القوات من الاقتراب الى اكثر من اربعة اميال من المدينة وان الطرادات وسفن النقل لم تستطع الاقتراب اكثر من ميلين. بدأت القوات البريطانية العمليات الحربية في فجر اليوم التالي 12 تشرين الثاني وكانت اولى العمليات هي محاولة استعادة السفينة الاسيرة ((منيرفا)) فقد شوهدت هذه السفينة تحاول الدخول الى الميناء فابتعدت عن سفن الحملة لكن الجزر حال دون تمكنها من المرور فرست بالقرب من حصن صغير يبعد حوالي الميل جنوب المدينة هاجمتها السفن البريطانية الصغيرة وقوارب المدفعية مما اجبر بحارتها من القواسم على الانسحاب منها الى الشاطئ فتمكن المهاجمون من الاستيلاء عليها ولكن النيران التي خرجت من الساحل اجبرت المهاجمين على التراجع وفي هذه العملية خسر الانكليز قتيلين وعدد من الجرحى ويعلق شاهد عيان على تلك العملية ((ان المقاومة العنيفة التي واجهتها من الساحل والنيران المتواصلة والمصوبة بدقة حالت دون الاستيلاء على منيرفا [24].

أمر القادة زوارق الانزال بالاستعداد لنقل الجنود ومع بواكير الفجر اخذ الزورقان باطلاق مدافعهما بكثافة على النهاية الشمالية من المدينة مما أوهم القواسم بان العدو يحاول الهجوم من هذه الناحية وبعد نصف ساعة تم انزال القوة الرئيسة انتبه القواسم وكن بعد فوات الاوان على تقدم العدو فحولوا نيرانهم نحوه واندفعوا بجرأة والسيوف مشرعة بايديهم لمقاومة الانزال[25].

استحكم البريطانيون في مواقعهم في نفس الوقت الذي تم فيه انزال مدافع النيران والذخيرة من الاسطول ، وجد القائدان البريطانيان بعد دراسة الموقف ان المقاومة الضارية التي تواجههم تجعل تحقيق نتيجة حاسمة بهذه الطريقة يستغرق وقتاً طويلاً وخاصة وان القواسم قد حولوا كل بيت الى متراس ، لذا قرر القادة احراق الاكواخ الواقعة بين تلك البيوت التي كانت عبارة عن حصون متفرقة وقد ساعد هبوب الرياح على تأجيج النيران بحيث اجبرت النيران والدخان الكثيف على تخلي القواسم عن مواقعهم والانسحاب الى النهاية الشمالية للمدينة حيث واصلوا مقاومتهم ، وهنا تختلف المصادر حول ما قامت به القوات البريطانية بعملية نهب عامة في المدينة المقهورة ويؤيد ذلك صاحب لمع الشهاب وابن بشر حيث يقول ((هذه البلدة التي استباحوها ونهبوا مافيها))[26].

ويقول الثاني ((ونهبوا كل ماتناولوه من النقود وغيرها))[27].

وانتقمت القوات الغازية من المدينة بمنتهى القسوة فقامت باحراق كل السفن الراسية هناك ومن جميع الاحجام ويبلغ عددها خمسين . كانت خسائر البريطانين قليلة بالنسبة للمقاومة التي واجهتهم ويعود ذلك على اعتمادهم على الاسلحة النارية وكذلك اغلفة الدخان حيث بلغت خسائرهم جرح ضابطين و8 جنود و9 بحارة اما خسائر القواسم فكان عدد القتلى (70-80) . اصدر الكولونيل سميث في صبيحة 14 تشرين الثاني امراً بالانسحاب بعد ان تسلم تقريراً يفيد بان هنالك قوة من العرب تقترب نحو المدينة ويعلق على هذا الانسحاب ((هذا الرحيل السريع وكان ضعفاً غير معروف لمثل هذا الشعب العنيف اعاد الطمأنينة للقواسم حيث نشروا راياتهم ملوحين بسيوفهم ورماحهم طالما لم تظهر أي علامة تدل على الاستسلام)) .

خامساً: مهاجمة البريطانيين الموانئ القاسمية الاخرى

تحرك الاسطول يوم 14 تشرين الثاني نحو الشمال قاصداً لنجة الميناء القاسمي المزدهر على الجانب الشرقي من الخليج العربي ولكن الحملة لم تلق مقاومة في هذا المكان اذ انسحب سكانها نحو الجبال فتم الاستيلاء عليها وقام الغزاة باحراقها تماماً كما دمروا السفن الراسية في هذا الميناء والبالغ عددها عشرين سفينة ومن لنجة ارسلت كارولين وسفن النقل الثقيلة الى ساحل الباطنة حيث جرى إلاتفاق على الالتقاء بسيد سعيد لتنظيم هجوم مشترك على شناص وخور كالبا وخور فكان اما وينرايت ومعه بقية الاسطول فابحر نحو النهاية الشرقية لجزيرة قشم لمهاجمة لافت التي يسيطر عليها القواسم وحلفائهم في معين ، وبعدها وصل الاسطول الى لافت عند ظهيرة يوم 26 تشرين الثاني فوجد قادة الحملة ان سكانها قد تحصنوا في قلعة حجرية كبيرة ، اقضى القادة يوم مفاوضات مع ملة (حسين شيخ بن معين) من اجل اقناعه بالاستسلام فلم يحقق مأأراده البريطانيون . انزل الجنود بقيادة سمث نحو القلعة حيث بوغتوا بنيران كثيفة ، ووجه القائد البريطاني انذاراً في هذا الوقت الى رجال الحامية بانه مالم يتم التسليم فانه لن يظهر اية رحمة في معاملته لهم حيث اعلن ملا حسين موافقته عند غروب الشمس وفي 28 من الشهر تم تسليم القلعة والمدينة الى ونيرايت ، واعتبرت المدينة والاموال التي عثر عليها والبلغة قيمتها عشرون ألف دولار هي ممتلكات حاكم مسقط . كانت خسائر البريطانين في عملية لافت كبيرة نسبياً سبعة قتلى وواحداً وثلاثون جريحاً من الجنود ومصرع اثنان من مشاة البحرية واثنين من معاوني القبطان وجرح ثلاثة عشر بحار ، اما خسائر القواسم فقد قدرت بـ 80-90 قتيل وجريح . توجه الاسطول بعد ذلك الى برقة حيث التحقت به القوة وبضمنها كارولين وتوجهت نحو مسقط لدراسة الموقف مع سيد سعيد واتخاذ اجراءات مشتركة معه[28].

سادساً: التعاون العسكري البريطاني – العماني ضد القواسم

معركة شناص :

توصل الطرفان الى اتفاق على القيام بحملة بحرية مشتركة لمهاجمة شناص وخور كالبافورفكان انتزاعها من القواسم وفي 25 كانون الاول تحرك الاسطول نحو الهدف الذي تقدم به سيد سعيد على رأس قواته العمانية سالكاً الطريق الشمالي بمحاذاة ساحل الباطنة. وتعرضت القوات العمانية ولاسيما في صعرة وشناص الى غارات وكمائن قام بها الفرسان من القواسم كلفها بعض الخسائر واخيراً وصلت الحملة العمانية – البريطانية شناص في 31 كانون الاول لتواجه مهمة مرعبة ارسل وينرايت عام 1810 م عرضاً للحامية المتمركزة في القلعة الضخمة يدعوها الى الاستسلام ولكن عرضه رفض باستهزاء من قبل قوات سيد سعيد وانزال جميع القوات البريطانية حيث القيت اربعة الاف قنبلة وقذيفة على الحصن لإجبار الحامية على التسليم وأمر القائد البريطاني بانزال مدفعين كبيرين عيار 24 باوند في قصف استمر حوالي 8 ساعات احدث ثغرة في السور وفي حوالي الساعة الثالثة انهار احد ابراج القلعة وكانت صرخات الكارثة الممتزجة بصيحات الله اكبر قد انطلقت في نفس اللحظة من داخل المدينة ومع ذلك ضلت ابراج القلعة صامدة ونجحت القوات البريطانية من السيطرة على القسم الرئيس من الحصن ولكن الصراع لم ينتهي بعد حيث سيطر العثمانيون والبريطانيون على الجزء الرئيس من الحصن [29].

ولذلك دعي القليلين الباقون على قيد الحياة بانهم يفضلون الموت على الخضوع ، وكانت خسائر القواسم في معركة شناص 400 قتيل . وبعد ذلك توجه الاسطول البريطاني بعد مغادرة شناص الى الخليج العربي في 15 كانون الثاني 1810م وتمكن من تدمير عشر سفن كبيرة في رأس الخيمة وثمان في جزيرة الحمر[30].

سابعاً: الحملة البريطانية الكبرى وانهيار الاتحاد القاسمي

1819-1820 م

لقد ادى انهيار الدولة السعودية الاولى على يد قوات محمد علي باشا في ايلول عام 1818 م الى تشجيع البريطانين على اتخاذ قرارهم بارسال حملة كبرى ضد القواسم حيث انهم فقدوا الحليف القوي الذي كان يجعل السلطات البريطانية تتردد في توريط نفسها في حرب في الجزيرة العربية وهكذا شهد الشهر الاخير من سنة 1819 م وبدايات سنة 1820م وقوع المرحلة الحاسمة في الصراع البريطاني القاسمي حيث تمت الاستعدادات العسكرية في اواخر سنة 1819 م . تحشدت في الاسبوع الاخير من تشرين الاول في ميناء بومباي قوات الحملة التي تألفت من 3747 جندي و12 سفينة حربية و 18 سفينة نقل عهد بها الى الجنرال وليم كرانت كير وصدرت التعليمات للقائد البريطاني للتوجه الى الخليج للقيام بتدمير اتحاد القواسم كلياً مهما كانت نوعية السفن التي يملكونها اضافة الى تدمير كل المستودعات العسكرية والبحرية في موانئ ساحل عمان كما نبه الى الاستفادة من خدمات حاكم مسقط السيد سعيد بن سلطان عدو القواسم من اجل تحقيق الانتصار الحاسم ، تحركت الحملة من بومباي في 3 تشرين الثاني وحين وصولها الى مسقط جرى لقاء بين حاكم مسقط والقائد البريطاني تعهد فيه حاكم مسقط بمرافقة الحملة بنفسه على رأس 800 رجل على سفينتين حربيتين اضافة الى أربعة آلاف رجل يتوجهون الى رأس الخيمة[31].بدأ القضاء على القواسم نهائياً في فجر 3 كانون الاول 1819 م وبوشر بعملية الانزال لمهاجمة عاصمة القواسم تحت غطاء من القصف المدفعي وجابهت المهاجمين مقاومة باسلة تواصلت خمسة ايام ابدى فيها المدافعون ضروباً رائعة من الشجاعة لكن التفوق الهائل في سلاح المدفعية للمهاجمين حسم الموقف في النهاية وتقدمت ودخلت القوات البريطانية رأس الخيمة في صباح 9 كانون االثاني بعد ان انسحب منها المدافعون في الليلة السابقة لنفاذ ذخيرتهم وقام الغزاة بعملية نهب وتدمير منشآت المدينة كما صادروا السفن الراسية في الميناء كافة بعد الاستيلاء على رأس الخيمة واجبر القائد حسين بن علي على التسليم في صباح يوم 22 كانون الثاني وعندما نفذت الذخيرة أسر البريطانيون الرجال جميعاً ودمروا التحصينات كلها وغادروا الى رأس الخيمة حيث وصفت بانها مدينة مخربة بعد الحملة[32].

ثامناً: المعاهدة العامة 1820م

على الرغم من بسالة القواسم تغلبت القوة الغاشمة واجبرهم الجنرال كير في الساحل على توقيع المعاهدة العامة في كانون الثاني 1820 م والتي رسخت بريطانيا بواسطتها هيمنتها على المنطقة ، وكان من الموقعين على هذه المعاهدة شيخ القواسم حسن بن رحمة.
وتضمنت المعاهدة الشروط الآتية :
1- يتعهد شيخ القواسم بتسليم السفن العربية الموجودة في رأس الخيمة والشارقة وابو ظبي ولايحق له سوى الاحتفاظ بمراكب الصيد .
2- يتعهد الانكليز بعدم الدخول الى الأحياء العربية بقصد تدميرها .
3- يعيد العرب جميع الاسرى من الرعايا البريطانين .
4- يوافق القواسم على تنفيذهذه الشروط وعلى توقيع معاهدة شاملة مع بريطانيا[33].

كما تضمنت المعاهدة احدى عشر مادة وابرز نصوصها هي :
المادة الاولى : تحريم اعمال السلب والنهب والقرصنة في البر والبحر بصفة دائمة.
المادة الثانية : كل عمل من أعمال السلب والنهب والقرصنة الذي يرتكب بصورة فردية يعتبر ضاراً.
المادة الثالثة :تلتزم السفن التابعة للعرب بحكم هذا النص برفع علم احمر يكون رمزاً على جنسيتها .
المادة الرابعة : تسوي القبائل المسلمة علاقاتها الداخلية فيما بينها .
المادة الخامسة : يجب على السفن العربية من الان فصاعداً ان تكون مزودة بورقة موقعة من رئيس المنطقة التابعة لها يسجل فيها اسم المالك واسم السفينة واسماء البحارة والميناء الذي ابحرت منه.
المادة السادسة : اذا رغب رؤوساء العرب في ارسال ممثل عنهم بهذه السجلات للمقيم البريطاني في الخليج لتوقيعها تسهيلاً لدخول سفنهم الى الموانئ البريطانية.
المادة السابعة : اذا لم تكف أية قبيلة عن اعمال القرصنة وجب على القبائل الاخرى ان تجتمع في عمل مشترك ضدها .
المادة الثامنة : تحريم تجارة الرقيق والتعهد بعدم حمل الرقيق من سواحل افريقيا بوصفه عملاً من أعمال القرصنة.
المادة التاسعة : السماح لسفن القبائل العربية بدخول الموانئ البريطانية وممارسة التجارة فيها بحرية.
المادة العاشرة : تستطيع السفن العربية ان تحمل العلم الخاص بها والدخول الى الموانئ البريطانية.
المادة الحادية عشر: تعتبر الشروط المذكورة معاهدة عامة فيجوز لمن يشاء من الرؤوساء الراغبين دخولها بنفس الطريقة التي انضم لها الموقعون[34].

إتسمت تلك التعهدات بالاذلال لشيوخ القواسم ، اذ لم تكن متكافئة بين الطرفين , ويمكن القول بانها غير شرعية ولكنها اتخذت من قبل الانكليز كوسيلة شرعية لمواصلة تدمير قوى القواسم العسكرية والبحرية الاخرى[35].

وعلى مايبدو ان الحملات البريطانية المتعددة على القواسم إتسمت بأعمال القسوة والوحشية بتدمير المدن والمساكن وابادة الناس الآمنين مما اضطرهم الى الخضوع للتفاوض وقبول الشروط الانكليزية ، لقد احدثت هذه الحملات تطوراً هائلاً ليس في وضع الخليج العربي وحده فحسب بل وضع الشرقين الادنى والاوسط معاً، ذلك انها مهدت لبريطانيا عقد معاهدات مع رؤوساء الامارات العربية على سواحل الخليج العربي ، حققت لها بسط نفوذها وسيادتها على اولئك الرؤوساء والمناطق التي يحكمونها. وكذلك ان هذا الصراع (الانكليزي – القاسمي) كان يجري بين قوة عظمى وقبائل بدوية مدافعة عن نفسها وأدت بالتالي الى تدمير قوة القواسم وتحجيم دورهم في الخليج العربي كقوة مدافعة عن نفسها ضد الغزو الاجنبي .

الخاتمة

نتيجة لإشتداد التنافس والصراع في منطقة الخليج العربي بين الدول الأوروبية الاستعمارية ، فقد شرعت بريطانيا الى تحويل هذه المنطقة الى صراع دائم للسيطرة على مقدراتها وإذلال شعوبها والحيلولة دون وصول القوى الأخرى لمنافستها ونتيجة لتطور هذه المواقف فقد آلت بريطانيا الى تثبيت جذورها في المنطقة بإستخدامها اسلوب القوة المفرطة وتحويل إمكانياتها العسكرية الهائلة لضرب المقاومة الوطنية لقبائل هذه المنطقة وأدى هذا السلوك الإستعماري البريطاني بالإصطدام بعرب الخليج العربي ويأتي في مقدمتهم قبائل القواسم العربية التي عرف عنها بالشجاعة والعناد الحربي في التصدي للإحتلال الأجنبي لغرض نيل كرامتهم واستقلالهم والحفاظ على عروبتهم .
وان من نتائج هذا الصراع بين الطرفين ، تمكنت بريطانيا من تدمير قوة القواسم والسيطرة على المنطقة رغم المقاومة الباسلة لقبائل القواسم لمواجهة الاحتلال البريطاني لمنطقة الخليج العربي وأخيراً تم الرضوخ الى عقد معاهدة 1820 م والتي أصبحت لبريطانيا السيادة في المنطقة .

المصادر :

1- صالح محمد العابد ، دور القواسم في الخليج العربي 1747-1820 ، مطبعة العاني ، بغداد 1976 ص 64- ص65 .
2- حسين ابن غنام ، تاريخ نجد (روضة الافكار والافهام) , تحقيق ناصر الدين الاسد , مصر ،1961 , ص188- ص190.
3- صبري فارس الهيتي ، الخليج العربي دراسة في الجغرافية السياسية ، بغداد ، 1979، ص 39 .
4- محمود بهجت سنان ، إمارة الشارقة ، وزارة الثقافة والارشاد , بغداد ,1967, ص 15.
5- حسين محمد القهواني وآخرون تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ، مطبعة جامعة البصرة ، 1984 ، ط1، ص 88 .
6- صالح محمد العابد ، المصدر السابق ، ص 70 .
7- محمود بهجت سنان ، المصدر السابق ، ص15.
* الوهابية : حركة دينية سياسية تنسب الى مؤسسها (محمد بن عبد الوهاب النجدي) واتخذت هذه الحركة من الدرعية مقراً لنشرها في أرض نجد ، للمزيد من المعلومات عنها انظر الوهابية في صورتها الحقيقية ، مركز الغدير للدراسات الإسلامية ، مطبعة باقري ، لعام 1994 م ، ص13 .
8- صالح محمد العابد ، المصدر السابق ، ص 134- ص 135.
9- لوريمر، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ط1 ، الدوحة ،1967، ص 135 .

10- مؤلف مجهول ، لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ، تحقيق احمد مصطفى ، بيروت ، بلا تاريخ ، ص81 .
11- صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، مكتبة الانجلو المصرية ،1974 ، ص 98.
12- صالح محمد العابد ، المصدر السابق ، ص 141- ص142.
13- عثمان ابن بشر،عنوان المجد في تاريخ نجد ،الرياض , بلا تاريخ ,ط1 ، ص144 .
14-عبد الامير محمد امين ، القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ، بغداد ،1966 ، ط1، ص 35.
15- سعيد امين ، سيرة الامام محمد بن عبد الوهاب ، بيروت 1382 هـ ، ط1 ، ص 412 .
16- صالح محمد العابد ، المصدر السابق ، ص 112- ص123.
17- صالح محمد العابد ، المصدر السابق ، ص 228- ص229.
18- صلاح العقاد ، المصدر السابق . ص 97-98.
19- صلاح العقاد ، الاستعمار في الخليج الفارسي ، القاهرة ، بلا تاريخ ،ص103.
20- عبد الرحمن عبد الرحيم ، الدولة السعودية الاولى ، القاهرة ،1969 , ص 169.
21 – جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي في عهد التوسع الاستعماري ، القاهرة ،1966 ، ص 169 .
22- جون فلبي ، تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد عبد الوهاب السلفية ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص 125.
23- خالد العربي ، الخليج العربي في ماضيه وحاضره ، مطبعة الجاحظ ، بغداد ,1972 ، ص 43.
24- صالح محمد العابد ، المصدر السابق ، ص 236-241.
25- عبد الامير محمد امين ،المصدر السابق ، ص72 .
26- عثمان بن بشر ، المصدر السابق ، ص141.
27- مؤلف مجهول ، المصدر السابق ، ص244.
28- صالح محمد العابد ، المصدر السابق ، ص 244.
29- صالح محمد العابد ، المصدر نفسه ، ص 252-255.
30- محمود بهجت سنان ،المصدر السابق ، ص29 .
31- صالح محمد العابد ، المصدر السابق ، ص 303-305.
32- صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص99-103 .
33- جعفر عباس حميدي ، طارق نافع الحمداني ، صادق أمير الحلو ، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ، بغداد 1990 ، ص 140.
34- صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، المصدر السابق ، ص 104-105.
35- جعفر عباسي حميدي , واخرون ، المصدر السابق ، ص141.